The North African Journal of Scientific Publishing (NAJSP)
مجلة شمال إفريقيا للنشر العلمي (NAJSP)
E-ISSN: 2959-4820
Volume 2, Issue 3, July – September 2024, Page No: 126-133
Website: https://najsp.com/index.php/home/index
SJIFactor 2023: 3.733 **معامل التأثير العربي (AIF) 2023: 0.63** **ISI 2023: 0.383**

أثر العصبية القبلية في شعر العصرين الأموي والعباسي

محمد محمد عيسى فيض [*]
[*] قسم ادارة السياحة، كلية السياحة والضيافة، مصراتة، ليبيا

The Impact of Tribalism on Poetry in the Umayyad and Abbasid Eras

Mohamed M. E. Faid [*]
[*] Department of Tourism Management, Faculty of Tourism and Hospitality, Misrata, Libya

[*]Corresponding author efedmohammed@gmail.com [*]المؤلف المراسل
تاريخ الاستلام:2024-07-20 **تاريخ القبول:**2024-08-27 **تاريخ النشر:**2024-09-17

الملخص
رغم اشتداد العصبية القبلية في نفوس العرب، وما رافقتها من منازعات ومشاحنات -في العصرين الأموي والعباسي- لم يمنع ذلك من تكتلهم وتوحدهم في مواجهة التحديات الخارجية، كان الرفض لهذه التحديات يقوي الإحساس العربي لديهم، أدى الشعر دوره في مواكبة الأحداث المصيرية في العصرين الأموي والعباسي، كما كان فاعلاً ومؤثراً في تحريكها والنفاذ إلى ما ورائها من شحد الهمم، وإثارة الحماسة، فكان بذلك عاملاً قوياً في إذكاء الإحساس العربي الذي تختلج به ضمائر العرب؛ لذا يحث الشعراء العرب -في العصرين الأموي والعباسي- بعقول واعية مستنيرة عن قبس من نور يهتدون به ليقودوا أمتهم إليه، ذلك هو واجبهم، وتلك هي رسالتهم في الحياة، وثمة تلاحم جوهري وثيق بين العرب والإسلام، وهو أساس قوة العرب في العصرين الأموي والعباسي لذا حاول أعداء أمتنا العربية والإسلامية الفصل بين جزائي هذه المعادلة الواحدة، بل وإيجاد التخاصم والتناحر بين أبناء العرب، إن اتجاه الإحساس العربي راسخ في وجدان أبناء العرب، وفي فكرهم، وجذوره عميقة في تراثنا الشعري في العصرين الأموي والعباسي.

الكلمات المفتاحية: العصبية، القبلية، الشعر، العصر الأموي، العصر العباسي.

Aabstract
Despite the intense tribalism that dominated the minds of the Arabs, along with the resulting disputes and conflicts during the Umayyad and Abbasid eras, this did not prevent them from uniting and consolidating their efforts in the face of external challenges. The resistance to these challenges strengthened their Arab identity. Poetry played a significant role in reflecting the critical events of these two eras, serving as an active and influential force in stirring up emotions, arousing enthusiasm, and rallying people. It became a powerful tool in enhancing the Arab consciousness, which deeply resonated in the hearts of the Arabs. As a result, Arab poets in the Umayyad and Abbasid periods, with enlightened and conscious minds, sought a guiding light to lead their nation towards unity. This was their duty and the mission they carried in life. Furthermore, there was a profound and inseparable bond between the Arabs and Islam, which was the foundation of Arab strength during the Umayyad and Abbasid eras. Recognizing this, the enemies of the Arab and Islamic nations attempted to divide these two integral parts of a single equation and to incite discord and conflict among the Arab people. The deep-rooted Arab identity remains firmly entrenched in the consciousness and thoughts of Arabs, with its roots deeply embedded in the poetic heritage of the Umayyad and Abbasid periods.

Keywords: Tribalism, Poetry, Umayyad Era, Abbasid Era

المحور الأول: المقدمة

لا شك أن العرب أمة عظيمة في أخلاقها وأفعالها، وأن تاريخنا نحن العرب متصل كل الاتصال بماضينا، وما التاريخ إلا ذاكرة تختزن مفاخر الأمة وآلامها وآمالها، والأمة التي تفقد تاريخها أشبه بالإنسان الذي يفقد ذاكرته، فيهيم على وجهه ويدار لا يعرف له مستقراً، ويضيع في غمرة الأحداث وزحامها.

لقد ظهرت العصبية القبلية العربية في العصرين الأموي والعباسي، وكان لها أثرها على الشعر العربي الذي أدى دوره في مواكبة الأحداث المصيرية، سيحاول البحث هنا تناول هذا الموضوع بالبحث آملاً بذلك أن ألقي ضوءاً ولو قليلاً على أثر العصبية القبلية في شعر العصرين الأموي والعباسي.

وقد حاول البحث أن أجعل هذا البحث خلاصة واختصاراً لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر العصبية القبلية في شعر العصرين الأموي والعباسي، واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في خمس محاور، يتناول المحور الأول مقمة و المحور الثاني أثر الحياة السياسية في العصرين الأموي والعباسي، ويتناول المحور الثالث أثر العصبية القبلية في شعر العصر الأموي، ويتناول المحور الرابع أثر العصبية القبلية في شعر العصر العباسي، وتناول المحور الخامس الخاتمة والنتائج التي توصل إليها البحث.

المحور الثاني: أثر الحياة السياسية في العصرين الأموي والعباسي

أنهار من الدماء، وعدد كبير من القتلى من الرجال والنساء، وأموال هائلة من أموال المسلمين، وعشرات السنوات، وغير ذلك الكثير أنفقه حكام بني أمية للاحتفاظ بقواعد ملكهم وأركان خلافتهم، ولكن على الرغم من ذلك كانت نهاية المطاف انتهاء الخلافة الأموية سنة 132 هجرية بقتل مروان بن محمد الذي "لم يتهن بالخلافة، لكثرة من خرج عليه من كل جانب، إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فخرج عليه بنو العباس، وعليهم عبد الله بن على عـم السفاح، فسار لحربهم، فالتقى الجمعان بقرب الموصل، فانكسر مروان، فرجع إلى الشام، فتبعه عبد الله، ففر مروان إلى مصر، فتبعه صالح أخو عبد الله، فالتقيا بقرية (بوصير)، فقتل: روان بها في ذي الحجة من السنة"[1]. وكان بدء أمر بني العباس اعتقادهم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعلم العباس بن عبد المطلب أنه ستؤول الخلافة إلى ولده، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك، ويتحدثون به [2]. وقد كان ضرورياً أن تنتظر اللحظة المناسبة لتحقيق ما يعتقدون أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد بشر به. وقد ساعد العباسيين في نجاح ثورتهم [3]، مجموعة الأخطاء القاتلة التي وقع فيها حـــكام بني أمية، من تقديمهم العرب على الموالي، وغفلتهم عن شؤون الرعية، وانحراف بعضهم، كالوليد بن يزيد الذي يقال إنه "كان مدمناً للخمر، منادماً للفساق، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد"[4]. ولم يكن ظهور العباسيين على الساحة السياسية ظهوراً عشوائياً، فقد كان مُعداً له قبل ذلك، عن طريق قربه من شيعة على بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فقد "نفذوا إلى أمنيتهم عن طريق فرقة الشيعة الكيسانية التي تكونت حول ابن الحنفية"[5]، إلا أن الخلافة تحولت من العلويين إلى أبناء عمومتهم العباسيين، ليبدأ المسلمون عهدًا آخر من الصراعات بين العباسيين والعلويين.

وعلى أكتاف الفرس قامت الدولة الجديدة، وأعلن العباسيون دعوتهم التي طالما أخفوها، منادين في بداية الأمر أنهم يطلبون إسقاط الدولة الأموية الجائرة، التي طالما أرهقتهم بعسفها وظلمها، وطالما احتكرتهم لمآربها وشهواتها مع الاستبداد بالشعب واستعباده، "ومع ما يعيش فيه الأمويون من ترف بالغ أفسد أداة الحكم إفسادًا لا صلاح لها بعده إلا بمحوهم محوا"[6]. وكان ضروريًا أن يبدأ العباسيون دعوتهم تحت ستار الدعوة لآل البيت لما لهم في قلب الشيعة خاصة والمسلمين عامة من مكانة تجعل الناس يقفون معهم، ولا يتخلون عنهم، وقد خُدع في هذه المسألة رجال من الذين قامت على أكتافهم دعوة بني العباس، كأبي سلمة الخلال، الذي حاول تسليم الخلافة لأحد من أخاد على بن أبى طالب، ولكنه لم ينجح في ذلك [7]، وكان هذا سببا في أن قتله العباسيون بعد أن استتب لهم الأمر. ومنذ اللحظة الأولى للخلافة، خطا أبو العباس السَّفّاح [8] خطوتين مهمتين وجريئتين في آن واحد؛ أما أولاهما فهي محاولة إثبات أحقية العباسيين في خلافة المسلمين دون منازع، وقد انبرى يدحض آراء المخالفين لهذه الأحقية من أول خطبة خطبها بعد توليه الخلافة "وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والخلافة منا [9]، فشاهت وجوههم بم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنـا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا ورفع بنا الخسيسة، وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر، ومواساة في دينهم ودنياهم"[10]. يا أهل الكوفة، أنتم محلُّ محبتنا، ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عـــن ذلك تحاول أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا؛ فأنتم أسعد الناس بنـا، وأكرمهم علينا؛ وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح، والثائر المبيـر[11]. وانبرى يحتج في ذلك بآي القرآن الكريم (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) [11] (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [12]، (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِه مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلَلَّه وَالرَّسُول وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيل) [13]. ويؤكد أحقيتهم في الخلافة من بيت العلويين الذين نادوا باسمهم، وخرجوا تحت لوائهم في بداية دعوتهم.

أما عن الخطوة الثانية، فهي القضاء على كل مراكز القوة في الدولة؛ حتى ينفرد بالحكم، لذا أغرى أبا مُسلِم الخُرَاسَانِيّ بأبي سلمة الخلال فقتله، واستمر يفتك بأفراد البيت الأموي، ويتخذ في الفتك بهم شكل احتفالات دامية، هو وغيره من حكام العباسيين من أمثال عبد اللهـ بن على الذي مثل بهم، وقتل كثيرين منهم عند نهر أبى فُطْرُس [14]. ومنذ اللحظة الأولى لتولى العباسيين مقاليد الأمور بدأ معها حنق العلويين عليهم، وصدامهم معهم، وقد بدأت الخطورة الحقيقية للعلويين بثورة (مُحَمَّد بْن عَبْد الله بن الحَسَن النَّفْس الزَّكيَّة) 145ه على المنصور، إلا أن المنصور ظفر به وقتله وأخاه وجماعة كبيرة من

أهل البيت. ومن الرموز القوية التي تخلص منها أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية أبو مسلم الخراساني [15]؛ الذي كان له دوره الكبير في تثبيت الحكم للعباسيين بعد أن ساهم في إيصاله إليهم، لكنَّ أمور السياسة -التي لا تعترف بالعواطف- استدعت القضاء عليه خوفاً من قوته، فاحتال له المنصور حتى قتله. وقد أحس المنصور بالراحة بقتل أبى مسلم "قيل إن (عِيْسَى بن موسى) دخل بعد ما قُتل أبو مسلم، فقال: يا أمير المؤمنين، أين أبو مسلم؟ فقال: قد كان هاهنا آنفا، فقال عيسى يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه؛ فقال: والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه؛ ها هو ذاك في البساط، فقال عيسى إنا لله وإنا إليه راجعون، وكان لعيسى رأيه في أبي مسلم، فقال له المنصور: خلع الله قلبك، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم"[16].

وكان المنصور قد أخضع قبل أبى مسلم عمه (عَبْدَ الله بن عَلِيّ)، واحتال له حتى قتله، وكان ذلك على يد أبي مسلم، الذي شتت عسكر عبد الله، وجعله يفر ويترك أتباعه، ثم يقدمه المنصور بعد ذلك ويقتله. وتثبيتا لأركان خلافتهم استطاع العباسيون أيضا القضاء على مجموعة من الثورات الداخلية الأخرى، مثل ثورة (سُنْبَاذ) بخراسان يطالب بدم أبى مسلم، وخروج (مُلَبَّد بن حَرْمَلة الشَّيْبَانِي)، وثورة (الرَّاوَنْدِيَّة) "وهم نفر كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقداتهم، تدافعوا إليه كالموج، وكادوا يفتكون به لولا دفاع (مَعْن بن زائدة) عنه وحسن بلائه"[17]. حقاً، لقد كان السفاح سفاحًا، والمنصور جباراً، ولولا غلظتهم، وما أهرقوه من دماء لأمكن ملك العباسيين، فما زال التاريخ يخبرنا أن هذه سمة أساسية عند إنشاء الدول تضعضع والحكومات الجديدة. ونعجب أشد العجب أن نرى الفقهاء والأتقياء وأهل العلم، وذوى النهي، وأصاب الفكر ينصاعون انصياعاً أعمى خلف الخلفاء في هذه المسألة، وكأنهم بذلك يُساندون تشريعاً من تشريعات الله، أو سنة مؤكدة من سنن المصطفى -صلى الله عليه وسلم- أو إجماعًا من العلماء أو قياساً، فما علمنا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد أوصى بالخلافة لأحد من أصحابه بهذا الشكل المباشر، ولم يوص أبوبكر بالخلافة لابنه، كذلك عمر بن الخطاب، فعثمان فعلي -رضي الله عنهم أجمعين-، لكنَّ العباسيين "أقاموا خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس التي كان لها أسوأ الأثر في خضوع الناس للظلم والفساد، ونعجب أن نرى كثيرًا من الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بني أمية ويعدونهم ظالمين، ينصاعون انصياعاً أعمى للعباسيين، ويعدونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الدينية والروحية"[18]. وقد كان هذا التفكير في خلع الرشيد سبباً في مـــوت الهادي نفسه على أرجح الأقوال "قيل: سمته أمه الخيزران لما عزم على قتل الرشيد ليعيد إلى ولده"[19]. وإن الإنسان ليعجب أشد العجب أن يقتل أخُ أخاه، أو تقتل أمُ ابنها من أجل هذا العرض الزائل، وهذا الضوء الذي لابد وأن ينطفئ، إلا أنهـا الخطورة التي تحيط بكرسي الحكم على مر السنوات، ومنذ أقدم العصور، وفي كل الأمم.

المحور الثالث: أثر العصبية القلبية في شعر العصر الأموي

نظام الوحدة السياسية، مما ساعد على تفتح الشعور الجماعي الإسلامي ليجمع أبناء هذه القبائل تحـــت شـــعار التوحيد.

وقد حارب الإسلام نزعات العصبية القبلية ودعت الآيـــــات الكريمة إلى التخلي عن الروح القبلية، لتحل محلها الروابط الأخوي الإسلامية قـــــال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [20]. وقد ورد عن الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- مجموعة من الأحاديث الشريفة التي تنبذ العصبية الجاهلية، وتنفر منها، قال عليـه الصلاة والسلام: (من قاتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية) [21]، وقال عليه الصلاة والسلام: (من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم) [22]، ودعا إلى ترسيخ الرابطة الدينية حتى تتمكن في القلوب وترسخ في النفوس، وقـد جعـــل -صلى الله عليه وسلم- مراتبها منوطة بالإيمان والعقيدة، فقال: (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) [23]. وهكذا ألغى الإسلام كثيراً من مظاهر الحياة القبلية وأعرافها وتقاليدها البالية، كالأخذ بالثأر، والتفاخر بالحسب والنسب.

وقد وقف الخلفاء الراشدون موقفا صارما من العصبية القبلية التي أطلت برأسها بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقـــد وجه أبو بكر-رضي الله عنه- أحد عشـــر مبعثا للقبائل التي ارتدت عـن الإسلام، وحاولت الانسلاخ عن الدولة مما ساعد صوت العصبية على الانطلاق من عقاله، وقد عبر عن ذلك الحطيئة جرول بن أوس في نزعة عصبية وروح جاهلي جاهلية. يقول:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ⁂ فيا لعباد الله ما لأبي بكر!

أيورثها بكرا إذا مات بعده ⁂ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

فهلا رددتم وفدنا بإجابة ⁂ وهلا حسبتم منه راعية البكر

وإن التي ساموكم فمنعتم ⁂ لكالتمر أو أحلى إلى من التمر [24]

ويصور الحطيئة تحالف عبس وذبيان أيام الردة يقول:

أَلَم تَرَ أَنَّ ذُبياناً وَعَبساً ⁂ لِباغي الحَربِ قَد نَزَلا بَراحا

يقالَ الأَجرَبانِ وَنَحنُ حَيٌّ ⁂ بَنو عَمٍّ تَجَمَّعنا صِلاحا

مَنَعنا مَدفَعَ الثَلَبوتِ حَتّى ⁂ تُرِكنا راكِزينَ بِهِ الرِماحا

نُقاتِلُ عَن قُرى غَطَفانَ لَمّا ⁂ خَشينا أَن تَذِلَّ وَأَن تُباحا [25]

وأدرك زعماء القبائل العربية المرتدة قوة الدولة الإسلامية مما أدى إلى انحسار نزعات الانفصال والتشرذم في نفوسهم، فعرفـــــوا أن جديدا قد بدأ. وما لبثت العصبية القبلية أن ظهرت من جديد بعد استشهاد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد تآزرت أسباب سياسية -داخلية وخارجية- في إشعال نار الفتنة، فانحازت بعض القبائل إلى جانب الإمام علي -كرم الله وجهه- ووقف بعضها إلى جانب معاوية -رضي الله عنه-. وقد تغنى بهذه العصبية عدد من الشعراء أمثال: الحصين بن منذر الرقاشي، وأبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني، والواضح أن النعرة القبلية قامت بدور فاعل في توجيه الكثير من أحداث هذه الفترة، وتركت آثاراً سلبية فيما بعد. يقول الحصين بن منذر الرقاشي:

رأت مضر صارت ربيعة دونها *** شعار أمير المؤمنين وذا الفضل
فأبدوا لنا مما تجن صدورهم *** علينا من البغضا وذاك له أصل
فأبلوا بلانا أو أقروا بفضلنا *** ولن تلحقونا الدهر ما حنت الإبل [26]

ويقول أبو الطفيل عامر بن وائلــة الكناني:

لقينا قبائل أنسابهم *** إلى حضرموت وأهل الجند
فلما تنادوا بآبائهم *** دعونا معدا ونعم المعد (27)

وهكذا أدى ظهور الدين الإسلامي إلى إضعاف جماح النزعة العصبية القبلية في نفس العربي ليحل مكانها نظام الدولة الإسلامية، فكان الرجل يقاتل أبناء جلدته في سبيل دينه. وقد سعى الإسلام لينقل الناس جميعاً إلى كثير من الفضائل والمروءات، وقد عبر عن ذلك المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله:

(إنَّمَا بُعِثْتُ لأُتمم مكارم الأخلاق) [28]، وبذلك كان هذا الديــن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها، وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا إليها على بصيرة [29]. وهكذا حث الإسلام الناس على كثير من الفضائل والمروءات الجزيرة العربية، وجعلها أساساً لنجاحهم في لنجاحهم في أداء الرسالة التي كلفوا بتبليغها إلى العالمين. وبانقضاء خلافة الراشدين، وبداية العصر الأموي، بدأت الحيـــاة العربية تسير نحو ملامح جديدة من التغيير، اضطرت كثيراً من الأعاجم (الانضمام لصفوف الثوار لعلهم يستعيدون حقهم في المساواة مع العـ كما ضمنها الإسلام، وحققها لهم الراشدون رضوان الله عليهم جميعاً) [30]. وقد ظهر التعصب السياسي واضحاً حين قصرت الخلافة على أمية، ولضمان ذلك فقد سعى حكامهم إلى كسب تأييد القبائل العربية القوية كقبيلة كلب اليمنية، وقبيلة قيس المضرية. وبدأت وتيرة العصبية تأخذ شكلاً جديداً بالامتداد إلى المدن العربية الإسلامية، فقد اتخذ بنو أمية دمشق عاصمة لسلطانهم، واتخذ المعارضون لهم الحجاز والعراق مقرا لقيادتهم السياسية، وقد عبر كعب بن جعيل عن عصبيّته الجغرافية يقول:

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العِراقِ *** وأهلَ العراقِ لهم كارهونا
وكلاً لصاحبهِ مُبْغِضاً *** يرى كلّ ما كان من ذاك دِينا [31]

وهكذا بدأت الخصومات القبليـة والعصبية تزداد تأججاً واشتعالاً، ويرى الدكتور شوقي ضيف أن (الشعر الذي وجد في العراق لعصر بني أمية إمــا شــعر سياسي وهو الذي كان يقال في الخصومة السياسية، وإما شعر قبلي وهو الذي كان يقال في الخصومة القبلية) [32]. وقد أسهمت عدة عوامل أيقظت العصبية القبليــة مــن رقدتهمــا تتمثل في: عوامل اجتماعية تمثلت في الإصهار إلى القبائل العربية القوية، وعوامل جغرافية تمثلت في التعصب للمدن وعوامل سياسية لتقويـــــة أركان الحكم وعوامل اقتصادية، وأخرى أدبية تمثلت في النقـــائض الـــي أسهمت في إشعال نار العصبية القبلية من جديد.

وكان لهذه الأسباب والعوامل أكبر الأثر في تأجج النزعات العصبية مما هيأ الدولة الأموية -التي اصطبغت بالطابع العربي الخالص- للانهيار، كما يرجع ذلك أيضاً (إلى الصراع القبلي بين اليمنية والنزارية، ذلك أن الصراع الذي فت عضد الدولة، بخاصة في المناطق الشرقية منها في العراق وما والاها) [33]. وأسهم الوضع الاجتماعي الموالي على إشعال الحقد الكامن في نفوسهم، والذي كان ينتظر فرصة سانحة للانفلات ووجد ذلك في الثورة العباسية، مما دفع نصر بن سيار -عامل الأمويين على خراسان- إلى التحذير من خطر الموالي مستصرخاً القبائل العربية أن تحشد قواها لمجابهة الخطر المحدق، يقول:

أبلغ ربيعة في مرو وأخوتهم *** إن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا *** حربا يحرّق في حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم *** كأن أهل الحجا عن مغلكُم غيَبُ
وتتركون عدوا قد أظلكم *** ممن تأشّب لا دين ولا حسَبُ
ليسوا إلى عربٍ منا فنعرفهم *** ولا صميمِ الموالي إن همُ نُسبوا
قوماً يدينون دينا ما سمعت به *** عن الرسول ولا جاءت به الكتبُ
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم *** فإنَ دينَهُم أن تقتّل العربُ [34]

وهكذا أسهمت عدة عوامل اجتماعية ودينية وسياسية في الهيار الدولة العربية الأموية، ونجاح الانقلاب العباسي لتبدأ هذه الحقبة بسمات تختلف في ملامحها وقسماتها عن العصر الأموي.

المحور الرابع: أثر العصبية القبلية في شعر العصر العباسي

وشهد العصر العباسي وصول عناصر غير عربية إلى سدة القيادة والحكم، مما أجج الصراع -في مواجهة ساخنة- بين العرب والشعوبيين، وبين افسلام والحركات المناولة له مثل: الخرمية والمزدكية والتي كانت تستهدف تحطيم المجتمع العربي، وهدم قيم الإسلام وأركانه، وكانت بمثابة معاول هدم لدعوات هدامة - كالباطنية والقرامطة فيما بعد. وقد ارتفعت بعض الأصوات التي كشفت عن حقدها القديم على العرب والإسلام، فتطاولت على العرب وأمجادهم أمثال: ابن ميادة الذي تبجح بأمه الفارسية، يقول مفاخراً:

أنا ابن سلمى وجدي ظالم *** وأمي حصان أخلصتها الأعاجم [35]

وبشار الذي افتخر بأصله الخراساني يقول:

سَأُخبِرُ فاخِرَ الأَعرابِ عَنّي *** وَعَنهُ حينَ بارَزَ لِلفَخارِ
أَنا اِبنُ الأَكرَمينَ أَباً وَأُمّاً *** تَنازَعَني المَرازِبُ مِن طُخارِ
أَحينَ كسيت بَعدَ العُري خَزّاً *** وَنادَمتَ الكِرامَ عَلى العُقارِ
تُفاخِرُ يا اِبنَ راعِيَةٍ وَراعٍ *** بَني الأَحرارِ حَسبُكَ مِن خَسارِ
وَكُنتَ إِذا ظَمِئتَ إِلى قَراحٍ *** شَرِكتَ الكَلبَ في ذاكَ الإِطارِ
وَفَخرُكَ بَينَ يَربوعٍ وَضَبّ *** عَلى مِثلي مِنَ الحَدَثِ الكِبارِ
مَقامُكَ بَينَنا دَنَسٌ عَلَينا *** فَلَيتَكَ غائِبٌ في حَرِّ نارِ [36]

وأبو نواس الذي لمع نجمه عالي في سماء الشعوبية يقول:

دَعِ الأَطلالَ تَسفيها الجَنوبُ *** وَتُبلي عَهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ
وَلا تَأخُذ عَنِ الأَعرابِ لَهواً *** وَلا عَيشاً فَعَيشُهُم جَديبُ
إِذا رابَ الحَليبُ فَبُل عَلَيهِ *** وَلا تُحرَج فَما في ذاكَ حوبُ
فَأَطيَبُ مِنهُ صافِيَةٌ شَمولٌ *** بِطوفُ بِكَأسِها ساقٍ أَديبُ
فَأَينَ البَدوُ مِن إيوانِ كِسرى *** وَأَينَ مِنَ المَيادينِ الزُروبُ [37]

وعلان الشعوبي الذي كان يؤثر العجم على العرب يقول:

أيها اللاطي بحفرته *** في قرار الأرض مجعول
قد تجاللت على دخل *** واستخفتك التهاويل
وأبو العباس غادية *** لغز إليه الأهاليل
تمطر العقيان راحته *** وله بالجود تهطيل
رستمي في ذرى شرف *** زانه تاج وإكليل
وعليه من جلالته *** كرم عد وتبجيل
إن لي فخرا مباءته *** قرار النجم مأهول
كسرويات أبوتنا *** غرر زهر مقاويل [38]

وقد أقام الشعوبيون الزنادقة حسراً بين الشعوبية، وبين خصـــوم العروبة والإسلام، واعتمدوا في ذلك على أشخاص لهم بريق وشهرة أمثال: الحلاج وبشار وأبي نواس ومهيار الديلمي وغيرهم، متناسين (أن الإسلام يعطي هذه الأمة قوة وأصالة ودفعة كاملة إلى الأمام ويني لها إحساسها النفسي بعظمة الماضي، وبطولة التاريخ، وجلال الدور الذي قامت به الأمة العربية الإسلامية في العالمين) [39]. ولعبت الشعوبية السياسية دوراً فاعلاً في الكثير من الأحداث في العصر العباسي، (وهي فترة تعد بحق من أرهــى العصور الإسلامية على الإطلاق، وإن خلفاءها كانوا من أقوى الشخصيات، ومع ذلك فقد قوي النفوذ الفارسي وحققت الشعوبية فيها كثيراً مـــن آمالها وأطماعها) [40]. وأشعل الفرس كثيراً من الفتن والاضطرابات مستغلين أصحاب الحل والربط من بني جلدتهم ممن كانوا يعملون في أروقة الحكم، فمثلاً (كان أبو الجهم عينا لأبي مسلم الخرساني على الخليفة أبي العباس السفاح [41]، وكانت نكبة البرامكة الفرس عاملاً رئيساً في إشعال الخلاف بين الأمين والمأمون. وهكذا تفجرت الشعوبية بأشكالها المختلفة: الدينية والأدبية والسياسية لتكشف عن قناعها التي استترت وراءه مدة طويلة، حيث انتقم الشعوبيون لأنفسهم انتقاماً قاسياً من أصحاب الاتجاه العربي في دولة بني العباس ومؤسساتها. وكان في مواجهة هذا المد الشعوبي بعض الخلفاء، كما تصدى لـــه العلماء والأدباء والشعراء، وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء: أبو تمام والبحتري، وعلـي بـن الجهم، وابن نباتة السعدي، والشريف الرضي، وأبو الطيب المتنبي.

يقول أبو تمام:

أَبقَيْتَ جِدَّ بَنِي الإِسلامِ فِي صَعَدٍ *** وَالمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ فِي صَبَبِ
تَذْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ *** لِلهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللهِ مُرْتَغِبِ
لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الْوَغَى لَغَدَا *** مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

رَمَـــى بِـــكَ اللهُ بُـرْجَـيْـهَـا فَـهَـدَّمَـهـا * * * ولَـوْ رَمَـى بِـكَ غَـيْـرُ اللهِ لَـمْ يُـصِـبِ [42]

ويقول البحتري في أصدق تعبير عن مشاعره العربية الأصيلة:

نحنُ أبْنَاءَ يَعْرُبٍ أعْرَبُ النّاسِ * * * لِساناً وَأنضَرُ النّاسِ عُودَا

وَكَأنّ الإلَهَ قَالَ لَنَا في * * * الـحرْبِ كونوا حِجارَةً أوْ حديدَا [43]

ويقول الشاعر علي بن الجهم:

فيالجنود ضيعتها ملوكها * * * وبالملوك ضيعتها جنودها

أيقتل في دار الخلافة جعفر * * * على فرقة صبرا وأنتم شهودها

فلا طالبا للثأر من بعد موته * * * ولا دافعاً عن نفسه من يريدها [44]

ويقول ابن نباتة السعدي:

أعْذِرُ قومي والرِّماحُ تَلومُ * * * وذلكَ خَطبٌ في الزّمانِ عَظيمُ

دعوتُ بني ساسانَ غيرَ مُدافِعٍ * * * إلى نهبِ مالي والكريمُ كَريمُ

وما ذاكَ من حُبٍّ لهمْ غيرَ أنّني * * * أريهم على البغضاءِ كيفَ أقيمُ [45]

ويقول الشريف الرضي:

وَمِن شِيَمِ الفَتى العَرَبِيِّ فينا * * * وِصالُ البيضِ وَالخَيلِ العِرابِ

لَهُ كِذبُ الوَعيدِ مِنَ الأعادي * * * وَمِن عاداتِهِ صِدقُ الضَرابِ [46]

وقد عبر هؤلاء الشعراء عن إحساسهم بالعروبـــة مـن خـلال مدائحهم للقادة العرب، وقد أخذت معاني العروبة لديهم بعداً دينياً واضحاً، فالمعركة تبقى مشتعلة بين الإسلام والشرك إلى قيام الساعة، ولكنها في كل حقبة تأخذ بعداً خاصاً، وتكشف عن عـــداء مخبـــوء لأمتنـــا العربية الإسلامية. وهكذا نمت في العصر العباسي بذور الشعور العروبي الإسلامي، ولم تستطع هذه الموجـة العاتية أن تكتسح معاقل العروبة في أماكن كثيرة: في العراق، والشام والجزيرة كإمارة سيف الدولة، وبني عقيل، وبني مزيد ... إلخ. وقد عانى المخلصون الشرفاء هذا الواقع المرير أشد المعاناة، وتألموا لما آل إليه أمر العروبة والإسلام في وقت ضاعت فيه القيم العربية، وانحسرت ظلال الفضيلة، وكان في مقدمة هؤلاء أبو الطيب المتنبي، الذي رأى الانهيارات العربية تتوالى على كل الصعد، وببصيرة سياسية يقرر أن الأمة العربية الإسلامية لن تفلح وأمرها في يد الغرباء الأجانب يقول:

وَإِنَّما الناسُ بِالمُلوكِ وَما * * * تُفلِحُ عُربٌ مُلوكُها عَجَمُ

لا أَدَبٌ عِندَهُم وَلا حَسَبٌ * * * وَلا عُهودٌ لَهُم وَلا ذِمَمُ

بِكُلِّ أَرضٍ وَطِئتُها أُمَمٌ * * * تُرعى لِعَبدٍ كَأَنَّها غَنَمُ [47]

المحور الخامس: الخاتمة

بعد هذا البحث في موضوع أثر العصبية القبلية في شعر العصرين الأموي والعباسي، نصل إلى العديد من النتائج، والتي يمكن أن تتلخص في النقاط الآتية:

أ- إن من أسباب سقوط الدولة الأموية، مجموعة الأخطاء القاتلة التي وقع فيها حـــكام بني أمية، من تقديمهم العرب على الموالي، وغفلتهم عن شؤون الرعية، وانحراف بعضهم.

ب- إن العصر العباسي كان مملوءاً بالأحداث السياسية المهمة والخطيرة، التي تركت أثرها الكبير في تاريخ العرب والمسلمين على طوله وتأرجحه بين القوة والضعف، وقد كان نجاح وصولها إلى كرسي الحكم، بالرغم من الثورات التي هزت كرسي العباسيين، إلا أن الدولة لم تفقد أسباب قوتها وظلت محتفظة بقوة فقد العرب والمسلمون كثيراً منها بعد ذلك.

ت- رغم اشتداد العصبية القبلية في نفوس العرب، وما رافقتها من منازعات ومشاحنات -في العصرين الأموي والعباسي- لم يمنع ذلك من تكتلهم وتوحدهم في مواجهة التحديات الخارجية، كان الرفض لهذه التحديات يقوي الإحساس العربي لديهم.

ث- أدى الشعر دوره في مواكبة الأحداث المصيرية في العصرين الأموي والعباسي، كما كان فاعلاً ومؤثراً في تحريكها والنفاذ إلى ما ورائها من شحد الهمم، وإثارة الحماسة، فكان بذلك عاملاً قوياً في إذكاء الإحساس العربي الذي تختلج به ضمائر العرب؛ لذا يحث الشعراء العرب -في العصرين الأموي والعباسي- بعقول واعية مستنيرة عن قبس من نور يهتدون به ليقودوا أمتهم إليه، ذلك هو واجبهم، وتلك هي رسالتهم في الحياة.

ج- لم تكن فضائل الأخلاق ومآثر القيم والمروءات التي تحلى بها العرب وليدة فترة ما، بل كانت امتداداً لأعراف وتقاليد الآباء والأجداد حافظوا عليها وحرصوا على تطبيقها في العصرين الأموي والعباسي، فكانت بذلك شكلاً من أشكال الترابط العربي بين أبناء الأمة الواحدة.

ح- ثمة تلاحم جوهري وثيق بين العرب والإسلام، وهو أساس قوة العرب في العصرين الأموي والعباسي لذا حاول أعداء أمتنا العربية والإسلامية الفصل بين جزائي هذه المعادلة الواحدة، بل وإيجاد التخاصم والتناحر بين أبناء العرب.

خ- إن اتجاه الإحساس العربي راسخ في وجدان أبناء العرب، وفي فكرهم، وجذوره عميقة في تراثنا الشعري في العصرين الأموي والعباسي.

قائمة المراجع:

1. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق، جمال محمود مصطفى، ط1، دار الفجر للتراث، 1420هـ، 1999م.
2. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار المعارف، 1966م.
3. محمد بن علي بن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، د.ت.
4. حسن علي حسن، دراسات في التاريخ العباسي، مكتبة الشباب، 1411هـ، 1990م.
5. شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ط14، دار المعارف، القاهرة، 1966م.
6. القرآن الكريم.
7. أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه، كتاب السنن (باب العصبية)، د.ت.
8. أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، مصر، 1313هـ.
9. محمد بن إسماعيل، البخاري، صحيح البخاري، راجعها ووضع فهارسها، محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار التقوى للتراث، 1421هـ، 2001م.
10. جرول بن أوس الحطيئة، ديوان الحطيئة، تحقيق، نعمان أمين طه، ط الحلبي، القاهرة، 1958م.
11. علي بن محمد الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، 1985م.
12. عز الدين عبد الحميد بن هبة الله ابن أبي الحديد عز الدين، شرح منهج البلاغة، القاهرة، 1329هـ.
13. نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1365هـ.
14. محمد الغزالي، خلق المسلم، دار البيان، الكويت، 1970م.
15. مي يوسف خليفة، قضية الالتزام في الشعر الأموي، دار الثقافة، القاهرة.
16. أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق، أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1966م.
17. شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
18. عز الدين إسماعيل، في الشعر العباسي الرؤية والفن، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1994م.
19. نصر الدين بن سيار، ديوان نصر الدين بن سيار، تحقيق عبد الله الخطيب، بغداد، 1972.
20. أبو الفرج علي بن حسين الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب، محمد ساسي وطبعات أخرى، د.ت.
21. بشار بن برد، ديوان بشار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.
22. الحسين بن هاني أبو نواس، ديوان أبي نواس، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.
23. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء، مصر، 1357هـ، 1938م.
24. أنور الجندي، الشعوبية في الأدب العربي الحديث، دار الشمال للطباعة، طرابلس، لبنان، 1987م.
25. زاهية قدورة، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ، 1988م.
26. أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، التاريخ، النجف، العراق، 1358هـ.
27. حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبي تمام، ديوان أبو تمام، شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992م.
28. أبو عبادة بن الوليد بن عبيد الطائي البحتري، ديوان البحتري، دار صادر، بيروت، د.ت.
29. علي بن الجهم، ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم، لجنة التراث العربي، بيروت، د.ت.
30. عبد العزيز بن نباتة السعدي، ديوان ابن نباتة، تحقيق عبد الأمير مهدي الطائي، دار الحرية، بغداد، 1977م.

31. محمد بن الحسين الشريف الرضي، ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، د.ت.
32. أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المتنبي، ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م.
33. أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري بن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق، أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1966م، ص649.
34. شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ص41.
35. عز الدين إسماعيل، في الشعر العباسي الرؤية والفن، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1994م، ص15.
36. نصر الدين بن سيار، ديوان نصر الدين بن سيار، تحقيق عبد الله الخطيب، بغداد، 1972، ص28.
37. أبو الفرج علي بن حسين الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب، محمد ساسي وطبعات أخرى، ج4، ص411.
38. بشار بن برد، ديوان بشار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م، ج3، ص229.
39. الحسين بن هاني أبو نواس، ديوان أبي نواس، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م، ج1، ص70، 71.
40. أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم الأدباء، مصر، 1357ه، 1938م، ج12، ص194.
41. أنور الجندي، الشعوبية في الأدب العربي الحديث، دار الشمال للطباعة، طرابلس، لبنان، 1987م، ص2.
42. زاهية قدورة، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي الأول، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408ه، 1988م، ص237.
43. أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، التاريخ، النجف، العراق، 1358ه، ج3، ص90.
44. حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبي تمام، ديوان أبو تمام، شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992م، ج1، ص36
45. أبو عبادة بن الوليد بن عبيد الطائي البحتري، ديوان البحتري، دار صادر، بيروت، ج2، ص63.
46. علي بن الجهم، ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم، لجنة التراث العربي، بيروت، ص61.
47. أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المتنبي، ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م، ج4، ص179.